



حين طلبت مني ابنتي (نوارة) أن أتحدث عن الابلاء، أثارت في نفسي استغراباً، وذكرتني بأنها المرة الأولى التي أحاول فيها طرق الموضوع مستقلاً طيلة حياتي على قربه وأهميته.

جوانب منه عالجتها ضمن حلقات إعلامية، لكن لا أذكر أني جمعت أطرافه وسؤالاته في حيزٍ واحدٍ مع تعلقه بكل مخلوق بلا استثناء.

أولاً: الحياة التي تنبض في جسدك ابتلاء، والموت الذي سيطويك هو ابتلاء: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَنْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)، تفصيلات الحياة؛ أنفاسها، تحولاتها، وجهها، أدواتها.

الابلاء هنا جماعي يدعو إلى السباق والتنافس الشريف بين الشعوب والفرق والطوائف.

مسؤولية الفرد ليست ملغاً أو مصادرة، فهو موضع الابلاء: (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي كَلَّا).

الإكرام والنعمة ابتلاء، والفقر والتضييق ابتلاء، ومعايير الناس ليست رشيدة دائماً؛ إذ يُعْدُون الرزق علامه الرضا، والحرمان علامه الغضب والإهانة!

تأمل نفسك، وتأمل الناس من حولك.. تجد جلهم هكذا ينظرون ويفكرون، حين لا يتحقق لهم ما يريدون يحسبون الأمر عقاباً أو سخطاً، ويندر أن تجد المُنْعَمِين والمُوَسَّعَ عليهم يُدَخِّلُهم خوف أو تردد أن يكون العطاء عقوبة!!.

ثانياً: التعامل الإيجابي مع الابلاء هو سر النجاح؛ أن تتعامل مع الممكن وليس مع المستحيل، ومن الناس من يقضي عمره في تمني الحال بدل أن يمضي في فعل المستطاع!

الصبر على ما تكره في الوجود هو الدرجة الأولى « وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ »، والرضا درجة أتم وأسمى.

رضيتك في حبك الأيام جائزة ... فعلقم الدهر إن أرضاك كالعنذب

والدرجة العليا هي الشكر، وهي من أعلى المنازل وهي فوق منزلة الرضا وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان؛ فالإيمان نصفان: «نصف شكر، ونصف صبر».

الصبر الجميل يتتطور بالمحاولة إلى رضا، والرضا يرتفع إلى مقام الشكر.

كتاب «سكونة الروح، صفاء العيش في حلو الأيام ومرها» من تأليف: «بيرم كرسو»، يحوي أفكاراً جميلة في تقبل الواقع كما هو وإن وقع علينا، أو على من حولنا.

إدمان التذمر عادة مدمرة لنفسية الفتى أو الفتاة، وكثرة التضجر والشكوى واستجلاب الشفقة هي سلبية لا تليق بالخلوق المزود بأدوات المقاومة والتكيّف، والممكّن من اختطاط سبيل الإيمان والتوكّل.

ثالثاً: اللسان يشترك مع الإنسان في معظم حروفه في لغة العرب، وقد عده "زهير" نصفاً حين قال:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

فإنسان إذاً هو مجموعة الكلمات والحروف والجمل؛ التي ينطق بها في حياته، حتى الأبكم لديه كلمات إيجابية أو سلبية، ولكنه لا يستطيع البوج بها، وهي تعبر عن شخصيته، ومزاجه، وحالته النفسية.

كل المشاريع والأفكار الإبداعية العظيمة كانت قبل أن ترى النور كلمات يتحادث حولها أصحابها، ويقدمون الدراسات، ولذا قال: علي بن أبي طالب وأيضاً سقراط: «تحدث حتى أراك»!

قصة الرقيب والعتيد وهما وصفان للملكيين بالإنسان مدعوة للتأمل، فهما يكتبان الأقوال، ومعنى ذلك أنهما قربان من منطقة الفم؛ لرصد الحروف والكلمات التي يتغواها، ولا يحاسب عليها إنسان ما دامت مجرد فكرة عابرة.

أولئك الذين يشتغلون دوماً بندب حظهم العاثر، وشخصياتهم المحطمة، وفشلهم الأزلي.. هم يبنون الأسوار بعد الأسوار التي تجعل خلاصهم أمراً في غاية العسر ما لم يكُنوا عن هجاء القدر بلغتهم السوداوية!

تسألني ابنتي: وهل تريد منا أن نمثل فنقول خلاف الواقع؟

نعم؛ قولي خلاف الواقع الذي اعتدت على رؤيته، والتقطي إلى واقع آخر إلى جانبه، أو على الفلسفة العمرية الرائعة؛ «فري منْ

قدر الله إلى قدر الله، أو التفتي إلى أمل قريب يوشك أن يكون واقعاً لو أردت، القرآن ربط الخير والشر، والإيمان والإلحاد، وسائل أفعال الإنسان بـ«الإرادة».

اقرئي الوجه المشرق حتى في المنع، والحرمان، والمرض، والأذى، وال المصائب..

هذا الذي تسمينه "تمثيلاً" سيُصبح مع التدريب والمداومة عادة حسنة، وما تقولينه سوف تسمعه أذنك، ويخزنها عقلك الباطن، ويعيد إملاءه عليك!

حتى في المزاح علينا أن نتوفّى الألفاظ السلبية، فالمريض الذي يتندّر أن المرض يغادره ليُفسح الطريق لعلة أشد وأقسى.

والطالب الذي يقول إنه مثل "سائق الباص" ينزل الركاب، ويأتي آخرون، وهو في مكانه لا يبرح ولا يريم!

والبنت التي تقول إنها ترى أحلاماً لبنات فتفسّر بزواجهن، فتقول: مهمتي الحلم، ومهمتكن الزواج!

وصاحب الدعابة الذي يتندّر على والده، أو على كبار السن بالموت، وأنكم على شفير القبر.. عليه أن يكُفَّ عن هذا المزاح، فهو قول سلبي، ولديه (رَقِيبٌ عَتِيدٌ)، وإياك أن تظن أن ضحك من حولك يعني تسويفاً تماماً لما تقول، قد تعجبهم النكتة، وفي داخلهم ضيق لا يكاد يبین، ستدركه إن كنت من ذوي الفراسة المُتوسِّمين.

رابعاً: الابتلاء إذاً يكون بالخير وبالشر؛ (وَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ).

والمقصود منه: ظهور علم الله في العبد، فينتقل من علم الغيب إلى علم الشهادة، ويراه الناس عياناً، ويتحدثون به، ولذا كان عمر - رضي الله عنه - يقول: «الغنى والفقير مطيّتان، والله ما أبالي أيهما ركبت!».

وقول المُلَهَّمِ عمر يَطَرِدُ فِي الصَّحَّةِ وَالْمَرْضِ، وَالشَّهَرِ وَالْخَمْوَلِ.

وقد عقد ابن القيم مناظرة في التفضيل بين "الغنى الشاكر، والفقير الصابر"، وانتهى إلى أن أفضلاهم اتقاهم لله إذا تساوا في كل شيء.

وصف عطاء الخراساني حجرات أزواج النبي - عليه الصلوة والسلام - فقال: أدركت حجر أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ يأمر بإدخال حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم، فسمعت سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادر من أهل الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها.

وقال يومئذ أبو أمامة بن سهل بن حنيف: ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء ويرون ما رضي الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده.

و جاء في السنة عن نافع بن عبد الحارث، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من سعادات المرء الجار الصالح، وأمركب الهيء، وأمسكن الواسع ». أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" والحاكم وصححه.

أَمَاوِيْ إِنَّ الْمَالَ غَادِ وَرَأَيْ ... وَبَقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِكْرُ
أَمَاوِيْ إِنِّي لَا أَقُولُ لِسَائِلٍ ... إِذَا جَاءَ يَوْمًا حَلَّ فِي مَا لَنَا نَزُورٌ
أَمَاوِيْ إِمَّا مَانِعٌ فَمُبَيِّنٌ ... وَإِمَّا عَطَاءٌ لَا يُهْنِهُ الزَّجْرُ
أَمَاوِيْ مَا يُغْنِي التَّرَاءُ عَنِ الْفَتْيِ ... إِذَا حَشَرَجَتْ نَفْسٌ وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

مكث أيوب عشرين سنة طريح فراشه، فقال الله لنا: (وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)، وصرنا نقول: «صَبَرْ أَيُوب».

سنين طوال وهذى الجراح
تمزق جنبي مثل المدى
ولا يهدأ الداء عند الصباح
ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى
ولكنَّ أَيُوب إِنْ صَاحَ صَاحَ
لَكَ الْحَمْدُ يَا رَامِيَا بِالْقَدْرِ
وَيَا كَاتِبَا، بَعْدَ ذَاكَ، الشَّفَاءَ!

مرض جسم فتعافت روح، وأشرقت بنور ربها.. حين ابتهل السياّب:

لأنه منك حلو عندي المرض ... حاشا فلست على ما شئت أعترض!

منطحراً أَمَامَ بَابَ الْكَبِيرِ

أصرخ في الظلام أستجير

يا راعي النمال في الرمال

و سامع الحصاة في قراره الغدير!

قيمة الإنسان الحقة هي في ذاته ومعدنه، وليس في الأشياء، فالأشياء تذهب وتجيء، وتمتحن وتُمْنَع، والكرسي دوّار.. (يُقَلِّبُ

اللهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَةً لِأُولَئِكَ الْأَبْصَارِ.

موقع الدكتور سلمان العودة

المصادر: